

فعالية استدعاء الرمز ودلالته الجمالية في شعر عثمان لوصيف من خلال نماذج مختارة

عويضان مسعودة

مفيدة ميزان

جامعة عباس لغرور خنشلة - الجزائر

maria2016mmaria@gmail.com

تاريخ النشر 2020/01/15

تاريخ القبول: 2019/10/06

تاريخ الارسال: 2019/06/02

الملخص

يعالج هذا المقال قضية توظيف الرمز ودلالته الجمالية في شعر عثمان لوصيف الذي يعد ظاهرة فريدة من نوعها في الشعر الجزائري الحر، إذ امتد الشاعر ببصره إلى أفاق الحداثة من خلال استعمال أدوات فنية وعناصر ملائمة للكشف الإبداعي تبين مدى مقدرة الشاعر لوصيف على خوض غمار التجربة الحداثية من خلال توظيف الرمز بطريقة مكثفة، تمنحه القدرة على الإيحاء بالدلالة بدل التصريح بها، وهذا ما جعل أشعاره تتميز بالغموض واللغة المركبة والمعقدة لولوجه عوالم خفية كالأساطير والتجربة الصوفية؛ مما أعطى شعره بعدا جماليا ورمزيا، وهذا يدفعنا إلى طرح مجموعة من التساؤلات: ما هي المصادر التي استقى منها الشاعر رموزه؟ وما دلالته الجمالية؟ وإلى أي مدى استطاع الشاعر عثمان لوصيف التعبير رمزيا عن رسالته الشعرية؟

الكلمات المفتاحية: الرمز، الشعر الجزائري، عثمان لوصيف، الأسطورة، الرمز الصوفي، رمز الطبيعة.

Abstract:

This article deals with the use of the symbol and its artistic significance in the poetry of Athmane LOUCIF, which is a unique phenomenon in Algerian free poetry, which has broadened its vision to the horizons of modernity by using artistic tools and elements conducive to creative discovery, showing the extent to which the poet LOUCIF is able to experience the modernity, using the symbol intensively, allowing him to suggest the meaning instead of declaring it, which has made his poetry characterized by complex and complex ambiguity and language, to penetrate into hidden worlds such as myths and mystical experience, which gave his poems an aesthetic and symbolic dimension.

This brings us to a number of questions:

From what sources does the poet draw his symbols? What is its aesthetic significance?

To what extent has the poet Athmane LOUCIF symbolically expressed his poetic message?

Keywords: symbol, Algerian poetry, Athmane LOUCIF, Legend, Sufi symbol, Symbol of nature.

مقدمة

يعد الشعر بصفة عامة أحد أهم الفنون الأدبية التي تحاول وباستمرار التعبير عن واقع الفرد الذاتي والاجتماعي في جميع مناحي الحياة، ولعل شعر التصوف أحد أهم هذه التوجهات التي احتلت موقعا مركزيا من خلال ظاهرة الرمز وهي أحد أهم التقنيات الفنية والجمالية التي يصطنعها الشاعر لكسر قيود اللغة المتداولة من جهة، ومن جهة ثانية محاولة القبض على النعمة الروحية المكبوتة داخل الوجدان الإنساني فهو "ما يتيح لنا أن نتأمل شيء آخر وراء النص...، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة"،⁽¹⁾ أي أن الرمز هو البحث عن المعنى الخفي المضمّر وراء المعنى الظاهر الجلي، لأنه "بات ضروريا أن تكون لغة الشعر المعبرة عن طبيعتها الجوهرية موعلة في التركيب الرمزي"،⁽²⁾ فتوظيف الرمز في الشعر هو "سمة مشتركة بين غالبية الشعراء على مستويات متفاوتة من حيث الرمز البسيط إلى الرمز المعقد،...، إلا أنه قد تنوع وتعمق وسيطر على لغة القصيدة الحديثة، وتراكيبها وصورها وبنياتها"،⁽³⁾ وهذا يعني أن استدعاء الرمز كملمح في يتكئ عليه الشاعر ليرتقي بالقصيدة من المستوى السطحي إلى المستوى التداولي التأويلي العميق، إذ أن "الرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعاينها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاص"،⁽⁴⁾ وتشكيل الرمز يتفاوت من شاعر لآخر كونه يبرز مقدرة وبراعة الشاعر، وما يمليه عليه الواقع والأثر النفسي في استحضار الصور الفنية؛ خاصة إذا وظف "الرمز بشكل جمالي منسجم، ودقيق، ومقنع، فإنه يسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة وعمق دلالتها وشدة تأثيرها على المتلقي"،⁽⁵⁾ فلكل شاعر أسلوبه الخاص في اختيار الرمز وكيفية توظيفه خدمة لكيان المعنى العام للقصيدة، ويمثل **عثمان لوصيف** أحد أبرز الأصوات الشعرية البارزة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر، وهذا لما يتميز به من شاعرية مبدعة تجسدت في دواوينه وقصائده الشعرية التي تمثل مظهرا فنيا وفكريا مغايرا قوامه الإيحاء والإيماء والإشارة من خلال توظيف عناصر رمزية منها ما هو ديني، ومنها ما هو أسطوري، ومن الرموز التي استخدمها الشاعر **عثمان لوصيف** نجد:

أولا - استدعاء الرمز في شعر عثمان لوصيف

1- الرمز الصوفي

يعد التصوف من أهم الظواهر التي أسهمت في تشكيل الشعر الجزائري المعاصر، وذلك من خلال توظيف ما يعرف بالرمز الصوفي، الذي يعد من الآليات التي يعتمد إليها الشاعر في التعبير عن مشاعره،

وليضفي صورة جمالية وفنية على كتاباته الشعرية، ولهذا شحن عثمان لوصيف أشعاره بدلالات دينية تخدم التجربة الصوفية؛ مما جعل الغموض عنوان هويته لأن "اللغة الصوفية لغة مقولة، وخيالات تحمل على تحريك الجاهز، وخلخلة البنيات، وهدم التقنيات، والدفع بها إلى عالم الناسوت بعيدا عن المخيلة المتحجرة"،⁽⁶⁾ فالرمز الصوفي هو قناع لتجربة الشاعر الروحية والوسيلة المثالية للتقرب والتغني بالذات الإلهية والفناء فيها ورؤية الجمال المطلق، وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

ناديت يا سربي تعال

أنا شارد عبر المفاوز

كالسؤال

متعثر بين النيازك

وانهيارات الجبال

يا نورس البشرى أعدني للبحار

لأجتلي فيها مراياي التي تحت المياه

تلاؤلات يوم اشتعال

فرأيت وجه الله يأرج ساطعا"،⁽⁷⁾

توحي هذه الأبيات عن انزياح روحاني وتعبير عن صوفية قريبة من السريالية، حيث بدأ الشاعر في البحث عن حقيقة الذات الإلهية من خلال الموجودات البصرية كـ (النيازك، النورس، البحار)؛ التي تعد من أهم وسائل الإقناع البصرية، إلا أن الشاعر تسامى بعقله باعتباره شخصا غير عادي وبحث عن هذه القناعة في موجودات طبيعية متخيلة متمثلة في أعماق البحار محاولا في ذلك استجلاء هذه الحقيقة؛ فتحقق له ما أراد من خلال قوله (رأيت وجه الله يأرج ساطعا) ليتجاوز بذلك العالم المدرك اليقيني ويختزن عالم الحقيقة لأن "البحث في مظاهر الجمال الإلهي المطلق، هي إحدى السمات التي من شأنها أن تحدد العلاقة الأنطولوجية بين الذات الإلهية وصفات العالم"،⁽⁸⁾ مما يعني أن نفسية الشاعر التائهة في البحث عن الحقيقة الإلهية تسعى جاهدة إلى التسامي والدوبان في الذات الإلهية العليا المفعمة بالرهبة محاولا في ذلك المسك بالحقيقة، لأن الصوفي عاشق ينفس عن مشاعره بمفردات تتسم بالرمزية التي تفرضها طبيعة المعاني الروحية.

وواصل الشاعر في موضع آخر

يا بحر منك أنا

ومني أنت

فاسمح للعناصر أن تغلغل في العناصر

كي ينال هذا الوجود وجوده

كي تبلغ الأرواح فينا سر جوهرها الإلهي

يا بحر معذرة فسرك لا يقال

لكنني قد بت منك مبللا"،⁽⁹⁾

فالشاعر هنا عندما ينظر إلى البحر يرى صورته فيه؛ وهذه ما هي إلا تحليلات للذات الإلهية العليا

لأن البحر بكل ظواهره الطبيعية تتجلى فيه الروح الإلهية؛ لأن "الرؤية الصوفية ليست انعكاسا مرآويا للواقع، بل هو تجاوز للوعي نفسه، إنها عملية خلق جديد للواقع ينسلخ فيها المتصوف عن موروثه الثقافي والاجتماعي ليتجرد من المعلوم ويفنى عن ذاته ليتحد مع العالم من حوله"؛⁽¹⁰⁾ مما يعني أن نفسية الشاعر تسعى إلى التسامي والتعالي لتكشف حجاب الحسن والجمال وتتخلص من الغرائز والشهوات الخفية ونوازع النفس الأمارة؛ وهي "الصورة النموذجية التي يتحقق فيها الارتباط بين الإلوهية والطبيعية، بين المتعة والعبادة، بين المقدس والمدنس"؛⁽¹¹⁾ فلم يكن توظيف الشاعر لرمز البحر وليد المصادفة، بل هو انعكاس لما أثقلت به نفسيته والتناقض الذي وجده بين عالمين عالم الدنيا المحكوم بالشهوات والملذات وعالم الذات الإلهية المحكوم بالمثالية والروحانية.

يقول الشاعر:

وصوفي أنا.. غمست في غوريهما

غزلت مواسمي تحت اللجج

ونثرت ريشي.. يا بحار تدثريه

ويا رياح خذيه غيما

وازرعي أجراسه في كل فيف ميت"؛⁽¹²⁾

إن الحب الإلهي عند لوصيف يغلب عليه الطابع الرومانسي المستوحى من مظاهر الطبيعة، حيث

القلب ينبض حبا وهياما لذات الإلهية العليا، باعتبار أن "الحب الإلهي من أهم مظاهر الاغتراب الصوفي

الذي يعكس انفصالا عن الواقع المعيش بكل إكراها ته، ويضمّر رغبة في الاتصال بمقام الذات الإلهية

ومعانقة أسرارها الربانية"؛⁽¹³⁾ فالشاعر حتى يكشف عن مكنوناته وعواطفه حاول أن يخلق علاقة رمزية مع

مكونات الطبيعة المتمثلة في (الريح، الفياض، الريش) ليعبر عن "أسرار ربانية تتصل بتجلي الحب في الطبيعة جامدها وحيها"؛⁽¹⁴⁾

ثانيا- مظاهر الخطاب الصوفي وأبعاده

1- رمزية الخمرة والتسامي الروحي

تعد الخمرة من الرموز الصوفية التي تعبر عن المحبة الإلهية بوصفها أزلية ذلك أن "الخمرة هي رمز وتلويح إلى معاني خاصة تدور على المحبة الإلهية، والعرفان الصوفي، ووصف أحوال الوجد الروحي"؛⁽¹⁵⁾ وفي هذا الصدد يقول عثمان لوصيف في ديوانه "قالت الوردة"

تتساءل عني ونورك مني
تخذ من حمايتي كأسا إذن إذن
وارتشف نخب شعري وصوفيتي
ثم ردد على مسمع الكائنات
انتشيت... انتشيت"؛⁽¹⁶⁾

يستحضر الشاعر في هذه الأبيات الخمرة في دلالتها الإيجابية وهي خمرة معنوية ليست من صنع البشر حيث يدخل الشاعر في حالة من اللاوعي متجاوزا الواقع معلنا انسحابه من العالم المحسوس إلى عالم الحب الإلهي والفناء والانتشاء في حب الذات الإلهية، وهي حالة تصيب المتصوف عند "انكشاف الجمال أمامه، وكأن قواه تضعف أمام قوة الجمال، فلم يجد المتصوفة أفضل من الخمر كمعادل لفظي لتلك الحالة، فأصبحت بذلك رمزا للحب الإلهي"،⁽¹⁷⁾ الذي تعبر عنه حالة السكر وغياب الوعي التي يعيشها الشاعر للحلول في الذات الإلهية الأزلية، وتطهير النفس الإنسانية في قوله (انتشيت... انتشيت) لأن حالة الانتشاء تجعل الشاعر ينسحب من العالم الحسي إلى عالم الحب الإلهي لتعكس لنا الخمرة لأن "السكر في عرف الصوفية هو المرحلة الواسلة بين الظمأ والفناء"،⁽¹⁸⁾ الذي هو مبتغى الصوفية

2- رمزية المرأة بين الإغراء والعشق الإلهي

تعتبر المرأة في النص الصوفي من أهم الرموز الروحية المقدسة التي تجسد دلالات مرتبطة بالعاطفة والوجدان والرؤية الجمالية للكون فهي رمز للجوهر الأنثوي باعتبارها معادل موضوعي للذات الإلهية "فالمرأة هي الحياة في قدسها السامي، وهي الحياة في كل آوان، وهي الحياة في كل وجود، حضور متعدد الأبعاد"،⁽¹⁹⁾ ورمز المرأة عند الشاعر الصوفي مجرد من معناه فهي تعد فقط السبب الذي يساعدنا على توضيح حقيقة الشعور الذي ينتاب قلب الشاعر الصوفي نجد عثمان لوصيف يقول:

يا طفلي.. يا شعلتي

قولي ولا تتكتمي

من أين تصعد هذه الأجراس

نحو سريرنا .. في أي قاع مظلم

من أي بحر غائم أو طلسم

ألف وباء"، (20)

يستحضر الشاعر في هذه الأبيات رمز المرأة المحبوبة الذي يتجسد في وجه الطفلة المقترن بالجمال المطلق والأبدية لتساعده في الوصول إلى أسرار وخبايا نفسه لأنها ترتبط بالجواهر الإنساني وتحقيق الديمومة حيث نجد الشاعر يستعير رمز المرأة المحبوبة لكي يظهر شوقه ولوعته التي تشبه شوق العاشق لمعشوقته فهو يعتمد على التمثيل الحسي من خلال معان علوية ليصبح هناك تماثل بين الحب الإلهي والحب الإنساني ف "يكتسب حضور الحبيبة، عند هذا المستوى، بعدا شبه صوفي، يرتفع به الوجود المتعين إلى أفق الرمز الذي يلامس مبدأ الخلق، في قدسه السامي، وسحره الشاجي، وتجدده المتصل"، (21) ومدى حب الإنسان وشوقه للذات الإلهية والفناء فيها لتتحد بذلك "الإرادة الإنسانية مع العاطفة في رغبة ملحمة تدفع بالنفس إلى تجاوز عالم الحس إلى عالم تصل فيه عن طريق الحب إلى محبوبها الأول الذي تدركه النفس ذوقيا لأن التصوف كالفن لا وجود له بدون العاطفة الجامحة"، (22) التي عبر عنها عثمان لوصيف بالحرف (ألف وباء) فالكتابة هي تفريج عن النفس من أجل أن إدراك الذات باعتبارها جزء من هذه الحقيقة.

وفي سياق آخر يقول الشاعر في قصيدته أنا وحببيتي

أعانقها

فتشبتك العصون

وألثمها

فينمو الياسمين

وترقبها النجوم

إذا مشينا

فتأخذها الغواية

والجنون"، (23)

خص الشاعر هذه الأبيات للحديث عن الحبيبة، وما يقتضيه رمزها من معاني الشوق وطلب وصالها،

حيث يمزج الشاعر في هذه الأبيات بين لحظاته الرومانسية مع حبيبته وجمال عناصر الطبيعة فحب

العاشقين هو من أسمى مراتب التوحد بذات الطبيعة "وذلك هو البعد الدلالي الذي تتجسد به الحبيبة

نموذجاً أعلى لأرقى الجمال في الطبيعة"،⁽²⁴⁾ التي عبر عنها بورد الياسمين وحتى اللحظة لم يجد العشاق أبلغ من الورد للتعبير عن آيات العشق في أعماقهم، لأن الأنتى تختزل كل القيم الفاضلة، باعتبارها "جمالاً حسياً ومثلاً نموذجياً يحمل العاشق على العفة"،⁽²⁵⁾ فهي رمز الجمال والعطاء وهي وسيلة لتفجير جنون العشق لأنها فتنة تؤدي بالملتون إلى الغواية والجنون.

3- رمزية الطبيعة بين الجمال وتجلي الذات الالهية

استخدم لوصيف في دواوينه صور الطبيعة بكل ما فيها من بحر، وأمواج، وأشجار، ووهاد، وعواصف، وطيور وغابات من أجل بلوغ الجمال الإلهي "هذه المفردات والعناصر والعلامات تمنحه الكثير من الغنى والتنوع، والثراء الذي يعطي للنص محفزات الألق والجذب، ويعطيه دفقا من التشبع والرواء، فهو يعمل على أسطرة المكان والأشياء"،⁽²⁶⁾ وهذا يعني أن الشاعر يجد مكانه في الطبيعة لأنها تساهم في إخراج مكبوتاته والجوانب النفسية الغامضة التي تتجسد في حالات الحزن والكآبة وكذا عن حالات الفرح والسرور من خلال مظاهرها أي أن الرموز الطبيعية "لها تأثيرها على الشعور والخيال والإحساس والفكر، حسب اللحظة النفسية التي يكون عليها الشاعر"،⁽²⁷⁾ ومن صور توظيف الطبيعة نجد قول الشاعر:

عشت الطبيعة سحرها وحريها

أسري مع النسمات

أرتشف الشذى

وأموج مابين الجداول والتلال

غنيت للغابات في أعيادها

عانقت أفواف الهوى"،⁽²⁸⁾

يعلن الشاعر هنا اعتناقه لتقاسيم الطبيعة واتخاذها إطاراً للمشاهد لما فيها من جمال وعظمة وسحر ينتشله من واقعه فيجوب به النسمات العبقات ويرتشف الشذى الذي يسري في أعماقه، فيبت فيه سكون ضجيج ووحشة مغترب وعزلة متألم وعاشق صوفي متعذب ففيها الملجأ والملاذ بين الجداول والتلال يحاكيها يناغيها يغني لها ويصلي في محرابها محاولاً الإنعتاق من أسر الحياة ليحتضن الطبيعة حيث الحقيقة والحرية محتمياً بعناصرها معيداً إليها عذريتها المستلبة أي أن "الشاعر المعاصر التفت إلى الطبيعة واتصل بها وبكائناتها ومخلوقاتنا ونباتها وفصولها وألوانها، ولم يعد مجرد واصف يصف مظاهر، بل أصبح منصتاً إلى

إيقاعها الحي ومتحدًا بالكون الطبيعي ومتجلّيا فيه"،⁽²⁹⁾ وفي سياق آخر يقدم الشاعر صورته في شكل لوحات فنية متتابعة ومتعددة من الطبيعة للكشف عن عوالم الروح الخفية وفي مقام آخر يقول الشاعر:

كنت قصيدة الغابات

يغزلها الحفيف الأزرق

هي هجرة أخرى هنا.. صور لمعجزتي

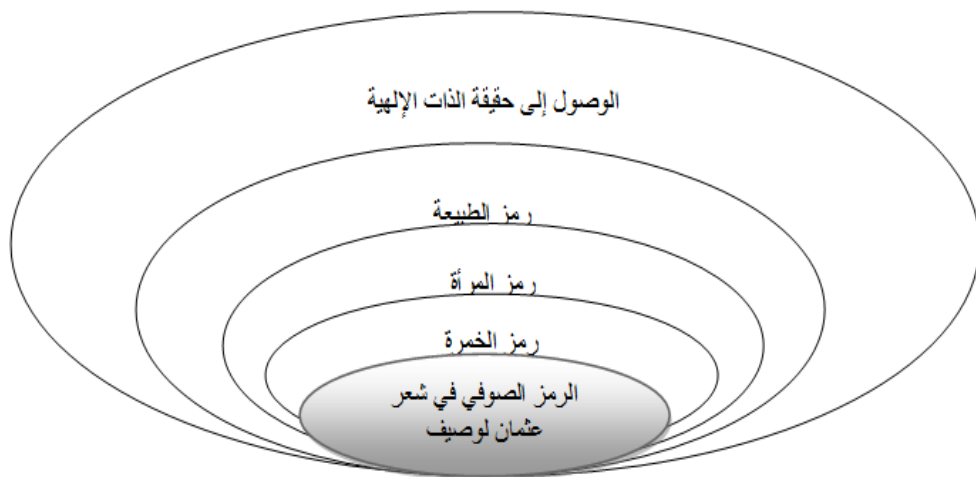
فها هي ذي طيور بل حروفي

في الفضاء تخلق

وخواطري عبر الغصون تزقزق

لكن عاصفة من النيران هبت كانت الأشجار تبكي"،⁽³⁰⁾

يعبر الشاعر عن عواطفه ومشاعره العميقة التي تعتلج أعماق نفسه؛ فيركن إلى أغصان الغابات وينصهر مع حفيفها فيعتلي أغصانها يناجي طيورها ويبادلها حروفه وكأنها تجعل خواطره محلقة في الأفق معلنة نشوب لهيب اضرمت نيرانه، فالشاعر هنا في غناء وجداني وفي حالة شعورية صورها في ثنائية البشر والطبيعة، حيث يشخص الشاعر في هذه الأبيات المحسوسات الموجودة في الطبيعة للتعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها أثناء التجربة الشعرية حين يسرح بخياله مثل العصافير المغردة والمهاجرة في عالم الطبيعة مطاردا الألم والهموم، التي أثقلت ذاته الشاعرة بصفتها روح عاصفة تحاول خلق واقع فني لملامسة الحقيقة المطلقة وتطهير النفس الإنسانية لمعانقة الحب الإلهي.



مخطط مسار الرمز الصوفي في شعر عثمان لوصيف

ثالثا- استدعاء الرمز الأسطوري

انفتح الشعر الجزائري المعاصر على الأسطورة واستلهم دلالته باعتبار أن "الأسطورة والشعر شيء واحد لا انفصال بينهما، فهما يؤلفان حقيقة من نوع خاص"،⁽³¹⁾ أي أن الشاعر عند توظيفه للأسطورة باعتبارها رمز يضفي عليها تجربته الشعورية، وهذا ما يعطي للنص قيمة فنية وجمالية "فالشعر نشأ كوسيلة للمحافظة على الأسطورة والاحتفاظ بديناميتها"،⁽³²⁾ لهذا لجأ عثمان لوصيف إلى توظيف الأساطير في دواوينه الشعرية بنسبة كبيرة حيث نجد (سيزيف، السندباد، جلجامش) وغيرها من الرموز، ومن أهمها نجد:

1- أسطورة سيزيف بين العبثية والإصرار

تعتبر أسطورة سيزيف من بين أهم الأساطير التي استلهمها الشاعر عثمان لوصيف في نصوصه الشعرية والتي تحمل دلالة المعاناة الدائمة وعبثية الوجود مجسدا بها "الوضع الإنساني في عصرنا هذا وما يعانيه من قهر واستلاب للحريات الفردية والجماعية، ومبدأ العذاب والألم اللذين كتبنا على الإنسان"،⁽³³⁾ يقول الشاعر في قصيدته لامية الفقراء

ندحرج صخرنا من غير بأس

وسيزيف لنا خير مثال

حلبنا الخمر من نار تلظى

وخضنا البحر في دمع الغزال

نغالب جوعنا من ألف ألف

ونحيا بالشهيق وبالسعال"،⁽³⁴⁾

بلور الشاعر اللعنة السيزيفية من خلال إخراجها من إطارها العام المعروفة فيه وفي العمل التافه والعبثية واللاجدوى إلى إطار آخر وهو الإصرار والتحدي واللاملل؛ فاتخذ الشاعر سيزيف كخير مثال وجعل المستحيل ممكنا فأورد شقاوة سيزيف بقراءة عكسية متحدثا بالضمير الجمعي نحن في شكل تكاتف متحد (حلبنا، خضنا، جوعنا، نحيا) في محاولة لقهر الظروف الصعبة فنحن سيزيف القوة والاتحاد والوحدة والمصير المشترك ونحيا بالشهيق والنعال حيث قام الشاعر هنا بتطويع العنصر الأسطوري سيزيف، لأن الغاية من التكرار والمحاولة متباينة فعند سيزيف نجد عبثيا نحايته الفشل، أما عند عثمان لوصيف التكرار من أجل تحقيق هدف العيش وعدم اليأس، (ندحرج صخرنا من غير بأس) لينفي من خلال شخصية سيزيف عدم عبثية جهوده ومواصلة "البحث عن انبعاث جديد يبدد مرارة اليأس ويخصب الحياة بالأمل في ولادة جديدة

منتظرة"،⁽³⁵⁾ وكل هذه الإشارات تدل على تمسك الشاعر بالحياة فهو مثل سيزيف "كلما صعد إلى أعلى تدحرج مع صخرته إلى أسفل، فهو يبحث عن طريقه، عن غده، عن الحق الذي يعطيه الحق في الحياة وتنفس الحرية"،⁽³⁶⁾

2- أسطورة السندباد المغامر

من أبرز الشخصيات الأسطورية التي كان لها حضور قوي في قصائد عثمان لوصيف الذي يسقط في تجربته الشعرية أسطورة السندباد مضافا عليها ملامح معاصرة فهو "رمز الاكتشاف والبحث عن عوالم الامتلاء والخصوبة، فقد ألهمت الشعراء بوصفها المعادل الموضوعي لإشراقات رؤيوية، رؤيا البعث المنتظر لواقع هش ومتآكل"،⁽³⁷⁾ هذا البطل الأسطوري الذي نجده في حكايات ألف ليلة وليلة، بصفته البحار الذي يتحدى الصعاب ويخترق المحيطات ويجوب الآفاق، ويلج الأماكن المحظورة، وفي هذا السياق يقول الشاعر في قصيدته:

عاشقا كان ينادي

في أعاصير الرماد

ويعاني

من تبايرح الحنان

خله يلبس موج البحر والريح قناع

ويمضي في مداها

إنه كالسندباد

يعشق البحر ويغويه الضياع"،⁽³⁸⁾

يجسد هذا المقطع حالة نفسية يعاني منها الشاعر، وهي حالة الضياع والتيه، (يعشق البحر ويغويه الضياع) حيث ينشغل بالبحث عن ذاته التائهة وعن أسرارها حيث يتخيل "الشاعر نفسه سندبادا بحريا معاصر يعيش في واقع متصلب متعب يشد قبضته على حريته الفردية"،⁽³⁹⁾ فيتخذ من سندباد البحر رمز أسطوريا يبرز من خلاله الفراغ الواضح بينه وبين واقعه المتناقض. فيمضي الشاعر عاشقا باحثا في المجهول (في أعاصير تلتف بالرماد في ضبابية مدلهمة يستصرخ في معاناة أنهكت تبايرح الحنان ينأى ويغيب وبالمقابل نجده مستمتعا بضياعه وبتهيه كأنه السندباد الذي يعيش غربة الوطن واغتراب نفسه؛ فعشقه الأزلي للبحر جعله مستلذا لهذا الضياع كمغامر كمخاطر كضائع

وفي موضع آخر يقول:

هذي بحار بائدات

من هنا قد مر نوح

والسندباد... ومن هنا مر الفينيقيون

أوليس ابن ماجد وكولومبس

من هنا زحفت جحافل

من هنا سالت أساطيل ورايات تلوح"،⁽⁴⁰⁾

يسافر الشاعر لوصيف في هذه الأبيات عبر الزمن الأبدي المطلق المرتبط بشخصيات دينية وأسطورية خاضت أهوال ومغامرات البحر عبر الزمن السحيق (أوليس، السندباد) مازجا بين الرمز الأسطوري والواقعي والديني مستهلا بقصة نوح وصنعه لسفينة النجاة مروراً بالرمز الأسطوري السندباد وأوليس؛ فرغم تباعد الأزمنة إلا أن حركية الإبحار والمغامرة الإنسانية موجودة منذ الأزل، لأن البحر هو انعكاس لروح الشاعر الباطنية.

3- جلعامش وهاجس الخلود

استعان الشاعر عثمان لوصيف بملحمة جلعامش التي تعد نصاً مفتوحاً يحمل الكثير من التأويل حيث "البحث عن الخلود والبقاء ثيمة مركزية في الملحمة العراقية، وأن الحية التي سرقت نبتة الخلود وحطمت آمال جلعامش بقهر الموت المكتوب على البشر"،⁽⁴¹⁾ وهو ما تمنى الشاعر لوصيف الحصول عليه يقول عثمان لوصيف

ليس لدي عشبة جلعامش

لأهيك الخلود

لدي فقط خيال شاعر

وقلب شاعر"،⁽⁴²⁾

يتضح من خلال هذه الأبيات الشاعر عثمان لوصيف يتمنى لو أنه حضى بعشبة جلعامش الباعثة على الخلود والحياة الأبدية ولكنه يخضع للأمر الواقع ويصطدم بحقيقة الفناء والابقاء وسقف الزمان يفتح له فقط مجال الخيال فيعترف ويقر أنه لا يمتلك سوى خيال شاعر يجوب به أفق اللاحدود حيث يمارس خلوده في شعره وحلمه، على الرغم من أنه مجرد خيال إلا أنه يكتفي به طالما يشعره ببعض السعادة،

فقلب الشاعر وتر يهتز كلما همست مشاعره عند تذكر زوجته فهو يملك قلبه وشعره ليجعل هذه المرأة التي تكون زوجته خالدة وحاضرة دوماً في كتاباته الشعرية التي ستبقى راسخة وخالدة عبر توالي الأجيال.

خاتمة

1- يروض الشاعر عثمان لوصيف صاحب الحس المرهف والذوق الرفيع، الكلمة والقول، يختبر الحياة قبل أن يضمها في تشكيل شعري، مصطنعا الأسلوب الرمزي ولعله لم يجد طريقاً آخر ممكناً يترجم به أفكاره ورؤاه الفنية .

2- عمد الشاعر الجزائري عثمان لوصيف في دواوينه الشعرية إلى توظيف الرمز بمختلف أشكاله وأنواعه ما بين (الديني، الأسطوري، الأدبي) فتعددت دلالاته وتأويلاته؛ مما جعله يتعد عن الوضوح والمباشرة ويلجأ إلى الغموض الذي جعله عنوان هويته مضافاً على الرمز سمة الجمالية التي لا تتحقق في الأسلوب المباشر بل في المعاني الخفية.

3- تتلاقى التجارب الحياتية عند كل من الصوفي والشاعر المعاصر، فكل منهما ينأى بنفسه عن واقعه، ويعيش غريباً ويؤسس لنفسه عالماً مثالياً ينشد فيه الكمال.

4- جعل الشاعر عثمان لوصيف من الرمز الفني ضالته للابتعاد عن العالم الواقعي المدنس والمثقل بأنواع المآسي وما فيه من مشكلات؛ فحاول أن يرحل عبر صوره الشعرية إلى العوالم الخفية المجهولة باحثاً عن البراءة والألفة والاحتواء من أجل الوصول إلى الغاية الروحية (الوصول إلى الحقيقة)

5- وظف الشاعر عثمان لوصيف في دواوينه وأخص بالذكر ديوان (الكتابة بالنار، جرس لسماوات تحت الماء، أعراس الملح، شبق الياسمين) العديد من الرموز الفنية التي أغنت تجربته الشعرية؛ مما زاد التجربة جمالاً فنياً يعكس مختلف الأحاسيس الإنسانية التي تزخر بالحياة.

6- تشابه شعر الحب الإلهي عند عثمان لوصيف بالحب الحسي، واختلطت معاني الشعر الصوفي، بالمعاني التي تعبر عن الغزل الإنساني بشكل يصعب التمييز بينهما.

7- تنبع التجربة الشعرية عند الشاعر عثمان لوصيف من عالم حسي؛ يحتوي على فلسفة صوفية تندرج في ثناياها ذات شاعرة مشبعة بالنزعة الصوفية، لأنه يرغب في الوصول للحقيقة المطلقة والبحث عن الفردوس المفقود.

8- إن طبيعة الرمز المستعملة تبرز تجربة الشاعر الوجدانية خصوصاً عناصر الطبيعة وما تحويه من جمال يوحي بعظمة الخالق، فهي ملاذ نوراني ومتنفس يهرب إليه في ظل غربة الشاعر الروحية والفكرية.

9- يدل رمز الخمر بمفرداته في شعر عثمان لوصيف على شدة الوجد والانتشاء؛ مما جعل الحمرة في بعدها الصوفي تدور على المحبة الإلهية ووصف أحوال الوجد الروحي.

10- يستحضر عثمان لوصيف رمز الأسطورة في شعره، باعتبارها منبعاً للخيال لما تنطوي عليه من مشاعر سامية مشعة في أعماق الذات الإنسانية، ومنها أسطورة السندباد وأسطورة جلجامش.

الهوامش

(1)- فريد تابتي، الرمز في الشعر العربي الجزائري المعاصر، الخطاب دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ط3، 2008، ص174.

(2)- عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية وتطبيقية، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص109.

(3)- صفية دريس، بنية الخطاب الشعري عند عبد الحميد شكيل تحولات فاجعة الماء أنموذجاً، دار الألمعية للنشر والتوزيع، ط1، 2014، ص118.

(4)- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط3، ص198.

(5)- صفية دريس، المرجع السابق، ص118.

(6)- صفية دريس، بنية الخطاب الشعري عند عبد الحميد شكيل تحولات فاجعة الماء أنموذجاً، ص135.

(7)- عثمان لوصيف، جرس لسموات تحت الماء متبوعة بـ يا هذه الأنثى، جمعية البيت للثقافة والفنون، 2008، ص61.

(8)- السعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ص203.

(9)- المصدر نفسه، ص63.

(10)- حميدي خميسي، نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط 'اتجاهاته، أعلامه، مدارس، عالم الكتب الحديث، اردب، الأردن، ط1، 2001، ص04.

(11)- عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية وتطبيقية ص 114.

(12)- عثمان لوصيف، جرس لسموات تحت الماء متبوعة بـ يا هذه الأنثى، ص66.

(13)- عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية وتطبيقية، ص105.

(14)- المرجع نفسه، ص116.

(15)- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند المتصوفة، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، ص378.

(16)- عثمان لوصيف، قالت الوردية، دار هومة، دط، الجزائر، 2000، ص31.

(17)- حليلة واقوش، بنية الخطاب الشعري عند يوسف وغليسي، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة 1، 2012، 2013، ص174.

(18)- نسيم بوسلاح، تجلي الرمز في الشعر الجزائري المعاصر، رابطة الإبداع، ط1، 2003، ص132.

(19)- جابر عصفور، تحولات شعرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص90.

- (20) - عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بـ يا هذه الأنثى، ص21.
- (21) - جابر عصفور، تحولات شعرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص91.
- (22) - السعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط2، 2008، ص265، 266.
- (23) - عثمان لوصيف، شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص59.
- (24) - جابر عصفور، تحولات شعرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2016، ص90.
- (25) - عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية وتطبيقية، ص114.
- (26) - صفية دريس، بنية الخطاب الشعري عند عبد الحميد شكيل تحولات فاجعة الماء أنموذجا، دار الألفية للنشر والتوزيع، ط1، 2014، ص127.
- (27) - لباشي عبد القادر، الرمز الفني في شعر لخضر فلوس، رسالة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب الإنسانية، بوزريعة، الجزائر، 2004 - 2005، ص62.
- (28) - عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بـ يا هذه الأنثى، ص59.
- (29) - حليلة واقوش، بنية الخطاب الشعري عند يوسف وغيلسي، ص176.
- (30) - عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بـ يا هذه الأنثى، ص57، 58.
- (31) - سامية عليوي، تجليات شهرزاد في الشعر العربي المعاصر دراسة نقدية أسطورية، دار ميم للنشر، ط1، 2018، ص30.
- (32) - سامية عليوي، المرجع نفسه، ص29.
- (33) - جمال مبارك، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الثقافة، ص225.
- (34) - عثمان لوصيف، الكتابة بالنار، ص19، 20.
- (35) - عبد الحميد هيمة، البنيات الأسلوبية في الشعر الجزائري المعاصر (شعر الشباب نموذجا)، مطبعة هومة، الجزائر، 1982، ص90.
- (36) - عبد الله الركبي، الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص121.
- (37) - عبد القادر فيدوج، الرؤيا والتأويل، ط1، دار الوصال، الجزائر، 1994، ص113.
- (38) - عثمان لوصيف، أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص27.
- (39) - جمال مبارك، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص213.
- (40) - عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء، ص23.
- (41) - سعد عزيز عبد الصاحب، ألف ليلة وليلة وتجلياتها التراجيدية في المسرح، ط1، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، الأردن 2018، ص101.
- (42) - عثمان لوصيف، قراءة في زمن الطبيعة، طبع بمطبعة دار هومة، دط، دت، ص5، 6.